بحث

دراسات ميدانية في أثر الصراع في سوريا على المجتمع

السوريون وتجربة النزوح

العلاقة بين سكان مدينة السلمية والنازحين إليها قسراً

فريق بحث- الباحث الرئيسي صبر درويش

مركز دراسات الجمهوريّة الديمقراطيّة

www.drsc-sy.org

نيسان - 2015

دراسات ميدانية في أثر الصراع في سوريا على المجتمع

السوريون وتجربة النزوح

العلاقة بين سكان مدينة السلمية والنازحين إليها قسراً

صبر درويش
باحث في مركز دراسات الجمهوريّة الديمقراطيّة، عضو هيئة تحرير قسم التحليل السياسيّ والإحصاء، مدير فريق بحثيٍّ في المركز.

فريق بحثيّ بإدارة الباحث صبر درويش

أشرف على البحث وحرره: يوسف فخر الدين

الاستشاريون:

الدكتور يوسف سلامة، المرجع العلميّ لمركز دراسات الجمهوريّة الديمقراطيّة.

الأستاذ أنور البني، مدير المركز السوريّ للدراسات والأبحاث القانونيّة.

الدكتور عزام أمين، جامعة ليون الثانية– فرنسا، عضو مجلس أمناء مركز دراسات الجمهوريّة الديمقراطيّة

الدكتور خلدون النبواني، جامعة السوربون– باريس، رئيس مركز دراسات الجمهورية الديمقراطية

جميع الحقوق محفوظة لمركز دراسات الجمهوريّة الديمقراطيّة

السوريون وتجربة النزوح

العلاقة بين سكان مدينة السلمية والنازحين إليها قسراً

– الفهرس –

توطئة.....4

أهداف ومنهجية البحث.....5

الفصل الأول.....6

النزوح القسري إلى مدينة السلمية في ظلّ حكم "سلالة الأسد".....6

النازحون قسراً إلى مدينة السلمية في ظلّ ثورة 2011.....8

أ– نازحو مدينة حماه.....9

ب– نازحو حمص العدية.....13

ج– نازحو الريف الشرقي.....14

الفصل الثاني.....15

بدايات متفائلة.....16

تحوّلات.....17

إستراتيجية النظام لمنع الاندماج الوطنيّ.....22

أثر التطرف وغياب مشروع وطنيّ لدى المعارضة على سكان سلمية.....24

خلاصة.....26

توطئة

أجبرت الحربُ الدائرة الآلاف من الأسر السوريّة على ترك مكان سكنها، والنزوح إلى مناطق أكثر أماناً، وهو ما جرى مع العديد من أسر مدينة حماه ومدينتي حمص وحلب، وريف السلمية الشرقي، التي نزحت للعيش في مدينة السلمية. حيث بلغ عدد النازحين إلى المدينة نحو 50 ألفاً، وفي كثير من الحالات، انتقل النازحون إلى بيئاتٍ مختلفةٍ ثقافياً، ودينياً أيضاً، كما حصل في مدينة السلمية، واحتكّ السوريون من مشارب مختلفة مع بعضم، حيث برزت مجموعةٌ من الأسئلة حول آثار هذا الاحتكاك والتمازج الاجتماعيّ على سلوكيّات الأفراد وأفكارهم.

في هذا السياق، يُطرح السؤال حول العلاقة بين سكان السلمية والنازحين قسرياً إليها؛ وما يتفرع عنه من أسئلةٍ فرعيّةٍ حول طبيعة المكوّن الاجتماعيّ/التاريخيّ للمدينة، وعن الذهنيّة التي تولّدت من هذه الطبيعة عبر العقود، والتي سهلت نشوء تياراتٍ ثقافيّةٍ سياسيّة ذات طابع وطنيٍّ ديمقراطيّ – إلى هذا الحد أو ذاك– وعن تفاعل هذا المكوّن، وما تبقى من هذه التيارات، مع الثورة، وتحديداً مع حالة النزوح التي نتجت عن قمع سلطة الاستبداد للثورة؛ وتالياً لينشغل التفكير في العلاقة الناتجة عن تلاقي الخصوصيات (خصوصية المدينة، مع خصوصية النازحين)، والآمال والانكسارات التي عرفها هذا التلاقي في سياق صراعٍ مفتوح، وإدارة سلطة الأسد التفكيكيّة التي جهدت لوضع السوريين في مواجهة بعضهم.

وعلى الرغم من أنه لم يغب عن بال فريق العمل، الذي أنتج البحث الذي بين أيديكم، صعوبة المهمة التي يتصدى لها، والتي تصل في جوانب منها إلى الاستحالة، في ظلّ وضعٍ أمنيٍّ يؤهلهم ليكونوا ضحايا في أي لحظة، إن انكشف مسعاهم، ونتيجة النقص الشديد بمجال توثيق المعلومات والتفاصيل –فقد أخذ الفريق على عاتقه السير في هذه المهمة الشاقّة، على اعتبار أنها محاولةٌ لاستكشافٍ أوليٍّ لأرض مجهولة، على أمل أن تكون معيناً لباحثين آخرين يتحملون عبء البحث المضني في مجالٍ مازال ما قيل فيه قليل؛ وأن يتابع مركز دراسات الجمهورية الديمقراطية، عبر أبحاث متتالية، استكمال ما بدأه.

أهداف ومنهجيّة البحث

تهدف هذه الورقة البحثية إلى تقديم دراسةٍ وصفيّةٍ في جوانب من التغيّرات التي حصلت على معرفة السوريين ببعضهم، ومواقفهم تجاه بعضهم، مع التركيز على الظروف القاهرة التي تمت بها، كمرحلةٍ لازمةٍ لمقاربة تعريفهم لهويتهم الجامعة. وقام فريق البحث بهذه المهمة عبر الإجابة عن أسئلةٍ قد تبدو إجاباتها بديهية بالنسبة لموطنين في دول ديمقراطية، مثل: "ما مدى معرفة السوريين لبعضهم؟"، إلا أننا نجد في الواقع أن السوريين حتى تاريخ اندلاع الثورة كانوا يعيشون تحت نير نظامٍ كرسهم جماعات مغلقة أشبه بالكانتونات، تفتقد إلى الكثير من المعرفة و المعلومات عن بعضها. ونجد أنه في غياب هذه المعرفة حلت الأساطير والخرافات محل معرفة السوريين لبعضهم، وباتت هذه الخرافات الاجتماعية جزءاً أساسياً من الثقافة السورية السائدة، وهو شرخٌ ربما ساهمت الثورة السورية في ترميم أجزاء منه، عبر ما وفرته ظروف الصراع من انفتاح العلاقات الاجتماعية على بعضها، وما مكنته من اختلاطٍ بين مكونات المجتمع السوريّ، ما كان لها أن تتمَّ لولا انفجار الثورة السورية، ومحاولة السوريين فتح باب التغيير الاجتماعيّ والسياسيّ. قبل أن تؤدي مجريات الصراع إلى حرف المسار، وعودتهم إلى الانكفاء على أنفسهم. لكن التجربة، والمعرفة، حصلت فعلاً، بإيجابيها وسلبياتها، وهو ما نبحث في بعض جوانبه.

وقد اعتمد البحث بشكل رئيسي على المراقبة المباشرة، والشهادات، نتيجة استحالة استطلاع الرأي عبر سبل أخرى بما فيها الاستبيانات. وفي ظروف أمنية شديدة الوطأة عمل فريق البحث على جمع شهادات من الناشطين المدنيين (ناشطين ثوريين، ناشطين إغاثيين، مثقفين)، والنازحين، وسكان السلمية (من فئات مختلفة منهم مدرسون). كما حاول فريق البحث استكمال المعطيات عبر البحث المكتبي، على الرغم من قلة المصادر في الموضوع؛ وقام الفريق بمراجعة الإصدارات المرئية، والصور، وتصريحات الناشطين والمثقفين من أبناء وبنات المدينة، وما توفّر من نصوصٍ منشورة عن موضوع البحث. واعتمد البحث التحليل الوصفيّ للشهادات، مع تثبيت المراجع في المتن حيناً، والإشارة إليها في الهامش أحياناً أخرى حتى لا تُشتت كثرتها في المتن القارئ .

الفصل الأول

النزوح القسري إلى مدينة السلمية في ظلّ حكم "سلالة الأسد"

شهدت مدينة السلمية الواقعة إلى الشرق من مدينة حماه، موجاتِ نزوحٍ مختلفة على مرّ العقود، وربما تكون آخر موجة نزوح على المدينة تلك التي حدثت في عام 1982، أثناء ارتكاب نظام الأسد الأب لمجزرة حماه.

في تلك الأثناء توجهت العشرات من الأسر الحموية إلى مدينة السلمية هرباً من الحرب الدائرة في شوارع مدينتهم. وبعد أن هدأت الحرب، عادت الكثير من أسر النازحين إلى منازلها، وبقي في مدينة السلمية أسرٌ أخرى استقرت فيها وتابعت عيشها.

في مدينة السلمية خليطٌ اجتماعيٌّ مثيرٌ للانتباه بالنسبة لمدينةٍ متوسطة في سوريا، حيث يوجد غرب المدينة حيٌّ يكنى باسم حي الحموية، حيث تجمعت الأسر الحمويّة النازحة إلى المدينة في هذا الحي، وبُني جامعٌ لهم؛ بينما على صعيد النشاط الاقتصادي، فقد أحضر هؤلاء النازحون معهم مهنهم وأموالهم ونشاطهم الاقتصاديّ بطبيعة الحال، فافتتحوا المحالَّ التجارية المختلفة، وزاولوا مهنهم كما كان يجري الأمر سابقاً في مدينتهم الأصل، وتملّكوا العديد من العقارات السكنية والتجاريّة، واليوم يوجد العشرات من المهن والورش وغيرها معروفة أنها "للحمويين" المتواجدين في المدينة[1].

لا يقتصر الأمر على الأسر الحمويّة، بل تضم المدينة أيضاً جماعات أخرى كانت قد نزحت إلى المدينة في ظروفٍ مختلفة، ففي السلمية سنجد بالإضافة إلى "حارة" الحمويّة، حارة "القدامسة"، وهو الحي الذي يضمُّ نسبةً عاليةً من الأسر التي نزحت من بلدة القدموس غرب سوريا في سنوات ماضية.

كما يوجد شرق السلمية حارة تدعى حارة "المشارفة"، في إشارة إلى الأسر التي تعود إلى أصول بدوية والتي استقرت تاريخياً في المنطقة وبنت منازلها واندمجت بالمدينة.

[1]- خلف السرايا الحكومية في المدينة، يوجد ومنذ سنوات طويلة سوق خاص بالحرف يشرف على أغلبه حرفيون من حماه.

إضافة إلى ما تقدم تضمُّ المدينة ولو بنسبٍ أقل، مجموعات وافدة أخرى، كالشركس، والكرد، والعلويين، وغيرهم من الجماعات. بينما الجماعة الأكبر التي تقطن مدينة السلمية، فهم من الطائفة الإسماعيليّة، وحتى على صعيد هؤلاء، كان الكثير من أسرهم قد نزحت تاريخياً من قرى وبلدات الساحل السوريّ، وتحديداً من محافظة طرطوس، إن كان هرباً من الحروب أو هرباً من الفقر.

وفي كلّ الحالات، تشكّل مدينة السلمية تنويعةً سكانيّة غنيّة ومتميزة، فهي تضمُّ وفقاً لما تقدم: غالبية تنتمي إلى الطائفة الإسماعيلية، التي تعتبر مدينة السلمية –معنوياً– مركزها العالميّ، وحمويّة، وعلويّة، وأدالبة، وبدو، وكرد، وشركس، وسنّة (من السكان الأصليين لمدينة السلميّة، وممن نزحوا إليها) وغيرهم.

عبر العقود الماضية، لم يذكر أنه نشبت نزاعات بين هذه الجماعات، المختلفة عن بعضها عقائدياً أو إثنياً، كما أنه لم يُذكر أنه عكّر صفو المدينة تكتلات اجتماعيّة لها طابع مذهبيٌّ أو غير ذلك، وعلى الرغم من أن المدينة وفرت عوامل استقرار إلى الوافدين إليها، وربما بسبب ذلك حافظت الجماعات الوافدة نسبياً على هويتها الدينية أو الإثنية، فظلّ الحموية معروفين في المدينة، إن كان من خلال لباسهم أو من خلال لهجتهم التي حافظوا عليها، وكذا الأمر بالنسبة لباقي الجماعات ولو بنسب أقل.

ولا يوجد مراجع موثقة حول أشكال الاندماج الاجتماعيّ المحتملة بين الجماعات في مدينة السلمية، إلا أنه وبالاستناد إلى المشاهدات العيانية، فإن أغلب هذه الجماعات بقيت منغلقة نسبياً على نفسها، حيث معدلات التزاوج من خارج الجماعة سنجده في حده الأدنى، هذا إن وجد، بينما السكن، ففضلت أغلب الأسر اختيار السكن بالقرب من الجماعة التي تنتمي إليها، وتنطبق هذه الملاحظة أيضاً على طقوس الزواج وعلى أشكال اللباس وغيرها من الطقوس الاجتماعية.

وتشير الملاحظة، إلى أن أغلب الجماعات الكبرى الوافدة إلى المدينة (كالحمويّة والعلويّة والبدو) اختاروا السكن في أطراف المدينة، فحارة "المشارفة" التي تقطنها غالبية من البدو، عندما أنشئت كانت في الطرف الشرقي البعيد من مركز المدينة، حتى إن هذا الحي لم يكن موجوداً أصلاً، وأنشأته الأسر البدوية التي اختارت الاستقرار في هذا الحيز، والأمر ينطبق على حارة الحمويّة

غرب مدينة السلمية، حيث لم يكن من حي في هذه المنطقة أيضاً، وقامت الأسر الحموية بشراء الأراضي في هذه المنطقة وبناء منازلها فيها، ولا يختلف الأمر بالنسبة للعلويين، الذين اختاروا التجمع جنوب مدينة السلمية في حي يدعى "ضهر المغر".

وتقف خلف هذه الخيارات عواملُ متعددة، قد يكون رخص الأراضي السكنيّة في أطراف المدينة من بين هذه الأسباب، وقد يكون الخوف من الاندماج– أو عدم الاندماج– عاملاً يدفع بالجماعات الوافدة إلى النأي بنفسها عن الاحتكاك المباشر بالسكان الأصليين؛ وقد تكون تلك الخيارات انعكاساً لآلياتٍ دفاعيّةٍ جماعيّةٍ للحفاظ على هويتها وتماسكها الداخليّ، وشكلاً من أشكال التضامن؛ بينما يوفر التكتل السكني بالنسبة لهذه الجماعات تعويضاً عن شبكات الحماية التي افتقدتها بسبب نزوحها، وهو شيء يعكس ميل الجماعة إلى ابتكار شبكات حماية جديدة، تتمكن بواسطتها من الحفاظ على هويتها الاجتماعيّة؛ ومن جملة العوامل الإضافية التي دفعت بالجماعات الوافدة إلى اختيار ضواحي المدينة للسكن، قد يكون عدم رغبة السكان الأصليين ببيع أو تأجير العقارات لهذه الجماعات، لأسباب قد تكون طائفية بمعنى عدم الرغبة بالاحتكاك بجماعاتٍ "غريبة" عن سكان المنطقة.

وطبعاً هناك استثناءاتٌ لهذه القاعدة، فحارة "الجورة"، وهي من الأحياء القديمة والتي تقع وسط المدينة، ضمّت تاريخياً خليطاً متعدداً من الجماعات، حيث سنجد هنا أسر حموية، وأخرى إدلبية، وقدامسة، وكرد، إلى جانب أسر السلامنة المتواجدة منذ عقود طويلة.

النازحون قسراً إلى مدينة السلمية في ظلّ ثورة 2011

بعد انطلاقة الثورة السورية سنة 2011، وخروج العشرات من المظاهرات في المدن والبلدات السورية المختلفة أفضت ممارسات نظام الأسد القمعية إلى نزوح العشرات من الأسر السورية هرباً من مناطق النزاع، وبحثاً عن أماكن أكثر أمناً.

وبالنسبة لمدينة السلمية التي باشرت بإخراج العشرات من المظاهرات الحاشدة بدايةً من 18 و25 آذار واستمرت بالتنامي حتى وصلت أعداد المتظاهرين إلى الآلاف، والتي تعامل معها

نظام الأسد بشكل خاص، حيث لم يتمّ قصف المدينة ولا استخدام العنف المسلح ضد ناشطيها السلميين، سوى في حالات جدّ خاصة[2]، فقد شكلت بيئة آمنة نسبياً للنازحين.

وشهدت المدينة ومنذ بداية حزيران 2011، عدة موجات من النزوح، أولها النزوح الذي حصل من مدينة حماه إثر ارتكاب نظام الأسد لمجزرة أطفال الحرية في الثالث من حزيران 2011 وتصاعدت ووصلت إلى ذروتها بعد اقتحام مدينة حماه وقصفها من قبل قوات النظام، وتلاها موجات نزوح من مدينة حمص التي تحوّل فيها الصراع السلميّ إلى شكله المسلح منذ أواخر عام 2011، وتلا هذه الموجات من النزوح، النزوح الذي أصاب سكان القرى والبلدات الواقعة شرق مدينة السلمية، على إثر اشتعال المعارك بين مقاتلي المعارضة وقوات النظام، فيما دعي بمعارك فك الحصار عن مدينة حمص، بالإضافة إلى قدوم نازحين من محافظة حلب وريف إدلب والرقة وريفها، ولاسيّما بعد أن باتت هذه الأخيرة في قبضة تنظيم الدولة الإسلامية في الشام والعراق "داعش".

أ- نازحو مدينة حماه

لم تكد تمضي بضعة أسابيع على المظاهرات التي خرجت في مدن وبلدات سورية المختلفة، حتى وصلت شرارة الحراك الثوري إلى مدينة حماه. وهي المدينة التي اختبرت عنف نظام الأسد الأب في الثمانينيات من القرن المنصرم، ودفعت ضريبة باهظة، ماتزال حاضرةً في ذاكرة أهالي المدينة.

ورغم ذلك، وخلال بضعة أسابيع، انتفضت المدينة عن بكرة أبيها، وتمكنت خلال هذه الفترة من عام 2011، وتحديداً في أشهر نيسان وأيار وبداية حزيران، من إخراج أكبر المظاهرات السلمية في البلاد، وهو ما شكل دفعاً كبيراً للحراك الثوري في سوريا بشكل عام.

لا تختلف طريقة تعاطي نظام الأسد مع الحراك الثوري في مدينة حماه عن غيرها من المدن السورية الثائرة؛ حيث زجَّ النظام بقوات الجيش وميليشيات الشبيحة وقوى المخابرات لقمع هذا الحراك، والذي تمخض عن ارتكاب قوات الأسد لأولى مجازره بحق المدنيين في مدينة حماه.

[2]- أثناء تشييع أحد شهداء مدينة السلمية من آل الفاخوري، قامت قوات النظام بإطلاق النار على المشيّعين، وسقط شهيد من بينهم من آل القطريب، بتاريخ 30-6-2012.

ففي الثالث من حزيران، وفي الجمعة التي سمّاها الناشطون السوريون "جمعة أطفال الحرية"، خرج المتظاهرون إلى الشوارع وفي أيديهم أغصان الزيتون وعلى أكتافهم أطفالهم، في تعبير منهم على سلمية حراكهم الثوري[3].

وفي تلك الأثناء قامت قوات الأسد بفتح النار على المتظاهرين، وأوقعت العشرات من الضحايا بين صفوفهم، ووصلت أعداد القتلى إلى نحو 60 شخصاً، وعشرات الجرحى غيرهم[4].

دفع العنف الذي جوبهت فيه مظاهرات مدينة حماه إلى نزوح العشرات من الأسر الحموية إلى أماكن متعددة في محيط مدينة حماه، ومن ضمنها كانت مدينة السلمية.

وجدت أحداث مجزرة أطفال الحرية انعكاسها في مدينة السلمية من خلال خروج **الآلاف** من الأهالي بتظاهرات عمّت الشوارع، وبحسب العديد من الشهادات، رفع المنتفضون ولأول مرة شعار إسقاط النظام، كردة فعل عفوية على عسف قوات الأسد وممارساتها في مدينة حماه؛ في ذلك اليوم خرج العشرات من أهالي المدينة وبشكل عفوي إلى الشوارع، كما سارع الناشطون إلى النداء على الأهالي من أجل التبرع بالدم لأهالي حماه.

إذ بعد صلاة الظهر[5]، وعند العودة إلى المنازل، سمع الناشطون بما جرى في حماه، وأحداث المجزرة المروعة التي حدثت، فأسرعوا للاتصال بمعارفهم وأصدقائهم هناك في حماه للتأكد ممّا جرى ويجري في المدينة، وبدأت نداءات الاستغاثة لطلب المواد الطبية والتبرع بالدم، فسارع الجميع للتبرع بالدم في المشفى الوطني في السلمية، أو في مركز بنك الدم، لكن ما حدث أنه لم يتم إيصال الدم إلى حماه عن طريقهما، بحجج شتى، وبالمحصلة منعت قوات الأسد أكياس الدم عن الناس، وهو ما دفع بالعشرات من بالناشطين إلى الذهاب إلى حماه للتبرع بالدم فيها.

كان مشفى الحوراني أهمَّ مشفى للتبرع بالدم، وطبعاً كانت جميع الطرق الرئيسة المؤدية إلى حماه مغلقة بحواجز تابعة لقوات الأسد، فاضطر الناشطون إلى الدخول إليها من طرقات أخرى من مداخل الريف والقرى المجاورة، وتمكّن الناشطون فعلياً من الوصول إلى المدينة والتبرع بالدم؛

[3]- شهادات حصل عليها الباحث الرئيسي أثناء زيارته إلى مدينة حماه في أواخر حزيران من عام 2011.
[4]- حول تفاصيل "مجزرة أطفال الحرية"، راجع: "جمعة أطفال الحرية تشهد مقتل العشرات في أكبر المظاهرات"، سميح الأدهمي، الشبكة العربية العالمية، بتاريخ: 4 حزيران/يونيو 2011.
[5]- المعلومات في هذه الفقرة والفقرات التي تليها، مأخوذة من شهادة غطفان الجرعتلي، أحد الناشطين المدنيين في مدينة السلمية.

وكان الملفت للانتباه في تلك الأثناء، قيام ناشطي مدينة حماه بحمل الشبان والشابات القادمين من مدينة السلمية على الأكتاف والهتاف لهم، في مشهد من التضامن الشعبي قلّ نظيره.

أدت العلاقات التجارية والاحتكاك الاقتصادي بين مدينتي حماه والسلمية، دوراً مهماً في بناء علاقاتٍ راسخة، كان لها كبير الأثر أثناء موجات النزوح التي أصيبت بها حماه المدينة؛ وفي بداية شهر آب وبعد أن قامت قوات الأسد بقصف مدينة حماه واقتحامها، ارتفعت أعداد الأسر النازحة من مدينة حماه إلى السلمية، وفي الحقيقة، شكلت هذه الفترة، الفترة الأهم على صعيد أعداد النازحين، حيث دخلت مدرعات النظام وقواته العسكرية إلى أحياء مدينة حماه ودمرت مساحات منها.

بسبب طبيعة تشابك العلاقات التي ربطت بين أهالي حماه وأهالي مدينة السلمية[6]، حدثت اتصالاتٌ واسعة بين شخصيات من مدينة السلمية، تجار وموظفين وغيرهم، مع نظرائهم من حماه، وحدث تفاعل شعبي واسعٌ من أجل تأمين الأسر الحموية النازحة في تلك الأثناء، وعلى الرغم من أن مدينة حماه كانت محاصرة بالكامل من قبل قوات النظام، إلا أن الناشطين تمكّنوا من خلال استخدامهم للطرق الفرعية من إرسال العديد من السيارات التي تمكّنت من دخول حماه، وإخراج العديد من الأسر منها.

بعد عدة أيام، تمكّن النازحون من الخروج من مدينة حماه باتجاه مدينة السلمية، وهناك تمَّ استقبالهم من قبل الأهالي والناشطين؛ وبالمجمل كان العمل يجري بشكل شعبي عفوي، ففي هذه المرحلة كان وجود المنظمات الأهلية و المدنية في بدايته، وكان العمل السياسي المنظم بحدوده الدنيا، فوقع على كاهل الأهالي والناشطين عبء استقبال النازحين وتأمين متطلباتهم.

أدت "التنسيقية"، وهي كيانٌ مدنيٌّ سعى ناشطون من خلالها إلى تنظيم حراكهم الثوري، دوراً مهماً على هذا الصعيد، وكانت التنسيقية إحدى الأطراف التي عملت بدأبٍ في سبيل تأمين احتياجات النازحين، وبحسب أحد الأعضاء المؤسسين للتنسيقية الأولى في المدينة، فقد جرى

[6]- المعلومات في هذه الفقرة، وفي مواضع عدة لاحقة، مأخوذة من شهادة ماهر إسبر، أحد الناشطين المدنيين في الثورة السورية، وأحد معتقلي الرأي سابقاً في سجون نظام الأسد.

تنسيقٌ كبيرٌ بينهم وبين بعض الجمعيات الخيرية في المدينة "كجمعية البر"، حيث قدمت هذه الجمعيات الكثير من المساعدات والتبرعات التي حملها ناشطو التنسيقية إلى النازحين[7].

بداية الأمر وُزعت الأسر النازحة على البيوت والمزارع المتاحة، وشارك العديد من الأهالي الذين يملكون منازل فارغة بالتبرع بمنازلهم، وفرشت البيوت من خلال تبرعات الأهالي، حيث جرى دعوة الأهالي من أجل التبرع بأدوات منزلية ومفروشات وغيرها، وفعلاً تمّ تأمين قسمٍ كبيرٍ من هذه الأسر، والتي وصل عددها بحسب القوائم التي سجلها الناشطون إلى نحو 20 ألف نازح[8].

في تلك الأثناء، كانت مدينة السلمية ما تزال خارج إطار القبضة الأمنية المحكمة، وكان للعمل المدني ثقله في المدينة، وكان لقوى المعارضة سلطتها على المدينة والتي حدّت بشكل كبير من تدخل قوى الأمن والشبيحة في شؤون الأهالي.

بسبب كل هذا، أدى الناشطون دوراً مهماً في دعم مدينة حماه بمعزل عن تدخلات قوى الأمن، حتى إنه وعندما قام بعض "الشبيحة" والعناصر الموالية لنظام الأسد، بوضع حواجز على مداخل مدينة السلمية من أجل منع النازحين من الوصول إليها، قامت مجموعةٌ من شبان المعارضة بالتصدي لهم، ومنعهم من التعرض للأسر النازحة.

كانت مدينة السلمية في ذلك الوقت تضج بالنشاطات المدنية السلمية، من مظاهرات عارمة[9]، واعتصامات، وأمسيات يجري فيها إلقاء الخطب السياسية، والهتافات للثورة.. إلخ، وكان اقتحام حماه يرمي بظلاله القاتمة على مشاعر الناشطين ويستثير الحماس لدى قطاعات الشباب.

كان الموقف من نازحي حماه، هو شكلٌ من أشكال النضال السياسي، إذ اندرج في سياق الردّ على خطاب الأسد الذي اتهم، ومنذ الأيام الأولى للثورة السورية، المنتفضين بأنهم إرهابيون وتكفيريون، كما زعم أنه هو الجهة الحامية "للأقليات" في سوريا، فكان موقف أبناء مدينة السلمية من الثورة ومن اقتحام النظام لمدينة حماه، أشبه بردٍّ على هذا الخطاب، ولاسيّما عندما نعلم أن مدينة السلمية محسوبة على الأقليات الدينية.

[7]- من شهادة أحد مؤسسي التنسيقية في مدينة السلمية، 2015.
[8]- راجع: "تلازم الوطني والإنساني"، عبدالله الشعار، جريدة الحياة اللندنية، بتاريخ: ٤ يونيو ٢٠١٢.
[9]- راجع: "حراك تحت المجهر: ثورة مدينة السلمية"، مجلة سنديان Sendian في 6 أكتوبر 2012،

وأياً يكن الأمر، فإن أهالي السلمية لم يترددوا في تقديم يد العون لأهالي حماه المنكوبين، والمثير للانتباه هنا، أن هذا الموقف لم يكن خاصّاً فقط بقوى المعارضة، بل إنه حتى الذين كانوا ما يزالون موالين لنظام الأسد، وقفوا إلى جانب إخوانهم الحمويين، وقدموا لهم يد العون في محنتهم تلك؛ وهو شكلٌ من أشكال التضامن الاجتماعيّ العابر للحسابات السياسية المباشرة.

ب– نازحو حمص العدية

في أواخر عام 2011، تردّت الأوضاع كثيراً في مدينة حمص الواقعة جنوب غرب مدينة السلمية، حيث تحولت النشاطات السلمية في كثير من أحيائها إلى العمل المسلح، ولاسيّما عندما أمعنت قوات الأسد في قمع مظاهرات المدينة بكلّ الأشكال العنفية المتاحة.

مع نهاية عام 2011 وحتى شباط من عام 2012 سينزح عن مدينة حمص عشرات الآلاف من سكانها، سيتوجه قسمٌ كبيرٌ منهم باتجاه دمشق وريفها، كما سينزح قسمٌ آخر باتجاه ريف حمص القريب، بينما ستتوجه العشرات من الأسر باتجاه مدينة السلمية.

وفي شهر آذار من عام 2012 وبعد سلسلةٍ من المجازر التي ارتكبتها قوات النظام وميليشياته بحقّ المدنيين، اضطر أغلب سكان حمص إلى النزوح عن منازلهم حيث باتت أحياء بابا عمرو وبابي السباع والدريب والحميدية وحمص القديمة كلّها مَهجورة تماماً وخالية من السكان.

وفي مدينة السلمية سعى الناشطون إلى استقبال الأسر الحمصية المنكوبة والهاربة من جحيم أحياء حمص المدمرة، بيد أن الزمن كان قد تغير في مدينة السلمية، حيث تمكنت قوات النظام من تعزيز مواقعها داخل المدينة، وتمكنت من احتلال شوارعها الرئيسة بالكامل، كما قامت قوات المخابرات بشنِّ سلسلة من الحملات التي أفضت إلى اعتقال العشرات من الناشطين، وهو الشيء الذي أدى إلى قمع الحراك الثوري في المدينة ومنع خروج المحتجين إلى الشارع.

وقد سبق حالة النزوح من مدينة حمص إلى مدينة السلمية، مسار من العلاقات "الثورية" بين المدينتين، فمنذ النصف الثاني من عام 2011 عمل ناشطو مدينة السلمية بجهد على التنسيق مع ناشطين من مدينة حمص، فجرى "تهريب" المساعدات الطبية والغذائية إلى الأحياء المحاصرة في حمص وبعض القرى في ريف حمص كالرستن وتلبيسة، وكان ذلك دائماً بالتنسيق بين شبان من مدينة السلمية وشبان من مدينة حمص، وهو ما أدى، وبشكلٍ تراكميّ، إلى تعزيز

العلاقات بين الجانبين والأهم من ذلك تعزيز الثقة بين الشبان في ظروف كانت تزداد سوءاً مع الوقت[10].

في ربيع عام 2012، باتت مدينة السلمية تحت قبضة قوى الأمن والجيش، وانتشرت قطعان الشبيحة من آل سلامة الموالين للنظام، "وبدأت حملة اعتقالات شملت المئات من الشباب، وشُكلت في السلمية كباقي المدن الأخرى لجان شعبية من العاطلين عن العمل ومن أصحاب السوابق، وحوصرت البلدة من قبل هذه اللجان، والتي عاثت في المدينة خطفاً وقتلاً ونهباً، والتي أقامت سجناً ومركزاً للخطف والقتل وطلب الفدية. فقد تم اختطاف عشرات الفتيات وسجن المئات"[11]. وعلى ضوء ذلك خَفت صوت قوى المعارضة حتى كاد يضمحل.

وفي هذه الظروف، حاول الناشطون استقبال الأسر النازحة من حمص، وتأمينهم وسط تدخلات قوى الأمن والشبيحة التي تعاملت مع النازحين بشكل انتقاميّ، باعتبارهم أعداء لهم.

ورغم ذلك، تمّ استقبال الكثير من هذه الأسر في بيوت تبرع بها أصحابها، أو قبلوا بأجورٍ رمزية؛ وإذا ما أخذنا بعين الاعتبار تردي الأوضاع الاقتصاديّة والأمنيّة في المنطقة، وأضفنا كلّ هذا إلى ازدياد عدد النازحين، فإن النتيجة كانت صعوبات كبيرة على مستوى استيعاب النازحين الجدد إلى المدينة.

بسبب هذه الضغوطات، اضطر ناشطو المدينة إلى استخدام العديد من المدارس لاستقبال الأسر النازحة، كما اضطر النازحون إلى الذهاب إلى الريف القريب من مدينة السلمية، كقرية تل التوت وحي السبيل شرق المدينة، وفي كل الحالات، تمّ استيعاب النازحين الجدد ولو بظروف في غاية المأساوية؛ وبلغ تعداد النازحين من مدينة حمص وريفها إلى مدينة السلمية نحو 10 إلى 15 ألف نازح.

ج- نازحو الريف الشرقي

في نيسان من عام 2013، أطلقت مجموعةٌ من التشكيلات العسكرية المعارضة، وعلى رأسها لواء الإسلام، ولواء الفاروق الإسلامي وغيرها، معركة "الجسد الواحد" في الريف الشرقي من

[10]- من شهادة أحد مؤسسي التنسيقية في مدينة السلمية، مصدر سبق الإشارة إليه.
[11]- راجع: "مدينة السلمية بين مطرقة الشبيحة وسندان الأمن"، سلمى الحموي، أخبار الآن، بتاريخ: 15-3-2014.

مدينة السلمية، وكان الهدف من هذه المعركة، قطع طريق أوتوستراد سلمية– الرقة الدولي، ومحاولة فك الحصار عن مدينة حمص.

على إثر هذه المعارك الطاحنة بين قوات المعارضة وقوات النظام، تعرضت قرى الريف الشرقي خلال معركة الجسد الواحد إلى قصفٍ عنيفٍ جداً أدى إلى تدمير وحرق أكثر من 10 قرى بالكامل، بالإضافة لتدميرٍ جزئيٍّ لأكثر من 15 قرية هي أم ميل، الحردانة، أبو حبيلات، أبو حنايا، مسعود، الخريجة، حمادي عمر، سوحا، عكش، أبو دالي، قليب التور، أم توينة، الفان[12]. وتمخض عن هذه المعارك حالة نزوحٍ كبيرةٍ لسكان هذه القرى، وبلغ عدد النازحين نحو الأربعين ألفاً، توجهوا إلى ريف إدلب المحرر، وإلى تركيا، وقسمٌ كبيرٌ منهم توجه إلى مدينة السلمية.

انضمت هذه الجموع النازحة إلى باقي النازحين في المدينة، وتمّ استيعابهم عبر مجموعة من القنوات الاجتماعية، منها علاقات القربى والمنظمات الإغاثية وغيرها من الفعاليات المدنية، والتي راحت تنوء تحت ضغط الأعداد المتزايدة للنازحين في المدينة والتي بلغ عددهم التراكمي نحو 50 ألف نازح، وهو رقم يختلف باختلاف المصدر، واختلاف الغايات[13].

الفصل الثاني

لم يمضِ على حالة النزوح في سوريا عموماً، وفي مدينة السلمية على وجه الخصوص، سوى فترة قصيرة نسبياً، ثلاث سنوات كحدٍّ أقصى بالنسبة لأولى موجات النزوح، ونحو السنة بالنسبة لآخرها، وهي فترة، وإذا ما أخذنا بعين الاعتبار الظروف غير الطبيعية التي تمرُّ بها المنطقة من حرب وعدم استقرار، غير كافيةٍ لحدوث تعديلات على سلوكياتٍ وأفكارٍ جماعيّة راسخة وتُشكّلُ جزءاً من هوية الجماعة[14].

[12]- راجع تقرير: "الريف الشرقي لحماة بعد معركة الجسد الواحد"، محمد صافي، عنب بلدي – العدد 75 – الأحد 28-7-2013.
[13]- المعلومات في هذه الفقرة مأخوذة من شهادة س.ج (فضل عدم ذكر اسمه)، أحد الناشطين في شعبة الهلال الأحمر في مدينة السلمية.
[14]- "يطلق مفهوم الهوية على نسق المعايير التي يُعرف بها الفرد ويُعَرّف، وبنسحب ذلك على هوية الجماعة والمجتمع والثقافة"، راجع مؤلف: "الهوية" تأليف: أليكس ميكشللي، ترجمة علي وطفة، تاريخ الطبعة العربية: 1993، تنفيذ دار الوسيم للطباعة.

من أجل ذلك، يبقى البحث في التعديلات التي طرأت على الأنماط السلوكية للجماعات الوافدة قسراً، والتغييرات التي طرأت على أفكارها وتصوّراتها، بحثاً محفوفاً بالأخطار، أخطار التعميم واستباق الأحداث، وربما مصادرتها؛ ومن هنا سنقارب إشكاليتنا بكثير من الحذر، آخذين باعتبارنا كل ما تقدم أعلاه.

بدايات متفائلة

في عام 2011، ومع المشاركة المبكرة لمدينة السلمية في الثورة[15]، وبعد ما رآه سكان مدينة حماه من ردود أفعال سكان مدينة السلمية الإيجابية تجاه الأسر الحموية النازحة إليهم، عقب اقتحام المدينة من قبل قوات النظام وقصفها في بداية آب من ذاك العام، هلّل سكان حماه لأهالي السلمية على مواقفهم النبيلة حيال النازحين، وكانوا في كلّ مرة تسير فيها المظاهرات بالقرب من كراجات السلمية في حماه، كانت تتصاعد الهتافات التي تحيّي أهالي السلمية وناشطيها المدنيين.

حقاً كانت قد سجّلت تلك المرحلة أفضل العلاقات التي جمعت بين مدينتين جارتين في كل منهما أغلبية طائفية مختلفة عن الأخرى. ونمت العلاقات بين مدينتي حماه والسلمية، ونشطت الاحتكاكات السياسيّة والاجتماعيّة بين الطرفين[16]. حتى إن الداعية الديني السلفي عدنان العرعور اضطر إلى التراجع عن بعض التصريحات التي مسّت أهالي السلمية، بعد الرد القاسي عليه من قبل ناشطي حماه.

وعلى صعيد شعبيٍّ، خفف التفاعل الإيجابي من قبل أغلبية أهالي مدينة السلمية مع النازحين من وطأة سلوكيات المليشيات المنتشرة في المدينة عليهم في هذه الفترة، وهو ما منع تعميم أحكام قاسية من قبل النازحين على "السلامنة". تقول إحدى النازحات من مدينة الرستن التابعة لمحافظة حمص: "لقد أتينا أنا وزوجي وبناتي إلى المدينة هرباً من القصف والقتل، واستأجرنا منزلاً لنا، عندما جئنا إلى البيت حضر الجيران وأحضروا لنا بعض الأشياء للبيت (إسفنجات وبطانيات و ملابس وعدة مطبخ) وأظهروا نوعاً من التعاطف معنا، وبعد سنة من نزوحنا توفي زوجي، ولأن أبنائي الشباب غير موجودين سارع الجيران لدفن زوجي وإقامة العزاء، وجارتي

[15]- أول مظاهرة خرجت في مدينة السلمية كانت في 18 آذار 2011، وأول مظاهرة موثقة كانت في 25-3-2011، على اليوتيوب: https://www.youtube.com/watch?v=6EnR_7F51qg

[16]- مجموعة لقاءات قام بها الباحث أثناء زيارته لمدينة حماه في تموز 2011 أثناء قصف المدينة.

فتحت منزلها لاستقبال المعزين، لقد وقفوا بجانبنا كثيراً، والآن نحن نعتمد على مساعدات الإغاثة، وطفلي الصغير ترك مدرسته ليعمل في محل خضار لمساعدتنا في المصروف".

تحوّلات

خلال السنوات الثلاث الماضية، طرأت متغيرات عدة على اللوحة السياسيّة والأمنيّة في المنطقة، وحدثت تغييرات بموازين القوى السائدة، فحتى نهاية عام 2011، كانت مدينة السلمية تحت سيطرة المعارضة، وإن لم يكن ذلك بالشكل الذي ساد فيما بعد في باقي المدن السورية التي دعيت بالمدن المحررة[17]، ومن بداية عام 2012 وحتى الربع الأول من 2013، ستتراجع سلطة قوى المعارضة في المدينة، وسيحل مكانها سلطة قوى الجيش التي تكثف وجودها في محيط المدينة، وسلطة قوى الأمن التي انتشرت في أغلب شوارع المدينة الرئيسة.

ومنذ بداية عام 2013 وحتى اليوم، ترزح مدينة السلمية تحت سلطة ميليشيات الشبيحة، وهي المجموعات التي شكّلها نظام الأسد من الموالين المدنيين للاستعانة بهم في قمع أي شكل من أشكال الاحتجاجات الشعبية. وهم في سيرورتهم أقرب إلى المافيا أو العصابات، وهو أمرٌ لن نخوض هنا في تفاصيله؛ وما يتوجب الإشارة إليه، أن المدينة باتت تحت سلطة مجموعاتٍ من المرتزقة، والتي عاثت فساداً في المدينة، وتركت ممارساتها كبير الأثر على حياة سكان المدينة من جهة، وحياة الجماعات النازحة من جهة أخرى، وهو ما سنناقشه بتفصيل أكثر لاحقاً. بيد أننا من الضروري أن نأخذ مجمل هذه الحيثيات كخلفية لتحليل الحالة الاجتماعية موضوع بحثنا.

على صعيد العلاقات الاجتماعيّة، وحتى كتابة هذه الورقة، لم يذكر في مدينة السلمية حدوث حالات زواج بين الجماعات النازحة وسكان مدينة السلمية، وعلى الرغم من استمرار الحياة بعد النزوح، بشكل أو بآخر، وعلى الرغم من استمرار الأفراد النازحين ببناء أسر جديدة من خلال التزاوج وإنجاب الأطفال، إلا أنه لم يلاحظ حدوث مثل هذه العلاقات بين النازحين والجماعات الأخرى.

وإذا كان الاختلاف المذهبي يشكل أحد الأسباب التي تقف خلف هذا الخيار، إلا أن في مدينة السلمية نسبةٌ لا بأس بها من الإسلام السنة، وهي الطائفة التي ينتمي إليها أغلب النازحين، ورغم

[17]- حول "المدن المحررة" راجع: كتاب "سوريا: تجربة المدن المحررة"، مجموعة من الباحثين، دار رياض الريس للنشر، إعداد صبر درويش، 2015.

ذلك، لم يحدث أن عقد القران بين أفراد من الجماعات النازحة من جهة، مع أفراد من سكان المدينة من جهة ثانية.

بخلاف ذلك، سنجد بأن النازحين الذين اختاروا السكن في الريف القريب من مدينة السلمية، أكثر انفتاحاً على هذا الصعيد؛ ففي الريف سنقع على حالات زواج عديدة حدثت بين النازحين وسكان هذه المناطق، وذلك على الرغم من الاختلاف المذهبي بين هذه الجماعات.

ومن خلال التدقيق في الخلفيات الاجتماعية والطبقية التي أتى منها النازحون، سنجد أن الأسر التي اختارت الاستقرار في الريف القريب من مدينة السلمية، هم ممن أتوا من الريف أصلاً، ريف حلب وريف حماه وحمص.. إلخ، بينما أغلب النازحين الذين اختاروا الاستقرار داخل مدينة السلمية، فهم بالأصل من المدن، مدن حماه وحمص، وقد يكون هذا أحد العوامل التي تقف خلف خيارات الأفراد والمجموعات في الاستقرار في البيئات الأكثر انسجاماً معها. وقد تكون بنية العلاقات الريفية الأكثر بساطة و شفافية، هي أحد العوامل التي تدفع إلى مزيد من الاندماج على مستوى العلاقات الاجتماعية، وتدفع بالجماعات الوافدة للانخراط بعلاقات أكثر مرونة من علاقات المدينة.

على صعيد اقتصادي، أُجبر النازحون – رجالاً ونساء– وبسبب طول فترة النزوح، على العمل، والانخراط بالنشاط الاقتصادي المتوفر في المدينة؛ فقسمٌ كبيرٌ من الشبان ذهبوا للعمل في سوق الخضار التجاري، وقسمٌ منهم عمل سائقاً على إحدى السيارات، وشريحة لابأس بها حملت معها مهنتها الأصلية وباشرت بمزاولتها ما إن استقرت نسبياً في المدينة، فافتُتحت العديد من المطاعم الشعبية، وورشات تصنيع الحلويات، وافتتحت محال تجارية، ورغم ما يستدعيه ذلك من منافسة لليد العاملة المحلية وأصحاب المهن، كانت ردود الأفعال الشعبية تتراوح بين اللامبالاة، وبين دعم هذه النشاطات[18]. يقول أحد الشبان النازحين من دير بعلبة في حمص: "نزحنا في الشهر العاشر لعام 2012، بسبب القصف المتواصل، فأتينا إلى هنا على أساس فترة قصيرة وثم نعود، لكن عندما اتضح لنا أننا لن نتمكن من العودة في الوقت الحالي، استأجرنا منزلاً، وأبدى الجيران في الحارة اهتماماً ومساعدة كبيرة لنا، وبعدها افتتحنا محلاً في وسط المدينة، لأننا أسرتان ولا

[18]- أغلب النشاطات الاقتصادية بالنسبة للنازحين كانت من النوع الشعبي: (محلات صغيرة لبيع التجزئة، مطاعم فول وفلافل، محلات لبيع اللحوم، أفران لبيع الفطائر.. إلخ).

نستطيع الاعتماد على مساعدات الإغاثة، وبالنسبة لموضوع العمل لا يوجد أي مشكلات، الناس تدخل المحل وتشتري، وهي ليست معنية من أي مدينةٍ أنا، ولا يهمها الموضوع، ما يهمهم المعاملة والسعر الجيد، ولم يسألني أحدٌ ممن دخل المحل من أين أنت".

وبحسب الشهادات التي حصل عليها فريق البحث[19]، استقبل العديد من سكان المدينة هذه المتغيرات بشكل إيجابيٍّ، واعتبر العديد من السكان، أن هذه النشاطات الاقتصاديّة، تنويعة مرغوبة في المدينة، وهو شيء ربما يقف خلفه الطبيعة المنفتحة أصلاً للمدينة وتحديداً بعلاقاتها مع الجماعات الأخرى.

على هذا الصعيد، انتقلت أسواق بكاملها من مدن النزوح إلى مدينة السلمية، فبات من الدارج أن ترى شيئاً يشبه سوق الدبلان الحمصي في السلمية، بينما الأسواق الرئيسة في مدينة السلمية، كشارع الثورة، وشارع السعن وشارع حماه، وهي جميعها أسواقٌ شعبيّةٌ، فقد غصّت ببسطات النازحين ومحلاتهم الصغيرة؛ ولا يبدو أن ذلك أثر سلباً على العلاقات البينية في النسيج الاجتماعيّ للمدينة، فحركة النزوح أنتجت ارتفاعاً في معدلات الاستهلاك بطبيعة الحال، وهو شيء ربما قلل من حجم المنافسة بين الفاعلين الاقتصاديين.

وفي فترات طويلة لم تُذكر أي حوادث احتكاك سلبيّ حدثت بين سكان المدينة والوافدين الجدد، حتى على مستوى المنافسين على الصعيد المهني، لم يذكر حدوث تصادم بين المتنافسين، وبقيت المسألة في إطار حق العمل وضرورة أن يكون لكلّ فردٍ الحق بالنشاط الاقتصادي، بينما "الرزقة" فهي على الله، وفق الوعي الشعبيّ السائد.

على صعيد الفئات العمرية الشابة (15– 25 عاماً) فهذه الفئة كانت وبحسب الملاحظة أكثر تكيّفاً مع المجتمع المحليّ، وتحديداً الطلبة منهم.

تمتاز مدينة السلمية بوفرة المقاهي الشعبية والمطاعم وصالات الإنترنت، وغيرها من الأماكن العامة، وتستقطب هذه المقاهي وبشكل أساسي، الشبان والشابات في مقتبل العمر، وهو شيءٌ سائدٌ نسبياً في مدينة السلمية؛ بسهولة انضم إلى هؤلاء الفتيان والفتيات النازحين، وباتوا جزءاً من رواد هذه المقاهي.

[19]- شهادة من س.ج، سبق الإشارة إليه.

في هذه الأماكن العامة، ترتفع معدلات الاحتكاك وتكوين الصداقات، ويصبح الشبان والشابات أكثر عرضة لاندماجٍ محتمل. في هذه الأمكنة، يمكن رصد آثار الاحتكاك بين الجماعات وما تتركه من تغييرات على الأنماط السلوكية لدى كلا الطرفين.

وفي تلك الأثناء تمكّن الناشطون الشبان في مدينة السلمية، من تشكيل منظمةٍ صغيرة سمّوها منظمة "الطلاب الأحرار"[20]، وتمكّنت هذه المنظمة مع الوقت من استقطاب العديد من الطلبة من المرحلة الثانوية تحديداً، كما تمكنت من استقطاب عددٍ من الشبان والشابات النازحين إلى المدينة. وأدت منظمة "الطلاب الأحرار" دوراً في الحراك الشعبيّ من خلال الكتابة على جدران المدينة، وتوزيع المناشير، ورفد التظاهرات، التي قلّ عدد المشاركين فيها في تلك الأثناء نتيجة تزايد الضغوط الأمنية. كما يعود إلى هؤلاء الشبان الفضل الكبير في تنسيق الجهود مع ناشطي مدينة حمص، حيث نجحوا في كثير من المرات في إدخال المساعدات إلى المدينة المحاصرة عبر طرق ترابية، وباستخدام الدراجات النارية؛ في ظلّ أخطار أمنيةٍ كبيرة، أودت في بعض الحالات إلى استشهاد شبان من مدينة السلمية أثناء إيصال هذه المساعدات[21]. وقد وفّر أداء الشبان والشابات، المنخرطين في العمل في منظمة "الطلاب الأحرار"، مناخاً من الثقة بنيت عليه بعض العلاقات مع النازحين من مدينة حمص، ساهمت في تخفيف وطأة النزوح، وتسهيل تكيّف الشباب من النازحين، عبر تشجيع العلاقات بين الشبان من الطرفين.

فوفقاً للملاحظة، لم يكن التعديل على سلوك الجماعات حكراً على النازحين، بل ذهبت هذه التغييرات في اتجاهين، طال الجماعات النازحة من جهة والمجتمع المضيف من جهة ثانية، وهو نتيجة أشكال التفاعل الاجتماعي تحديداً عند هذه الفئة العمرية الأكثر ديناميكية من باقي الفئات، وأقل تمسّكاً بالهوية الاجتماعيّة المتفق عليها مسبقاً، وهو أيضاً ما سنراه لاحقاً لدى فئة التلاميذ.

بالنسبة للتلاميذ، وتحديداً في مرحلة التعليم الأساسي، قد لوحظ، وبالاستناد إلى شهادات العديد من المدرسين والمدرسات، ديناميكية وقدرة عالية على التكيّف لدى هذه الفئة العمرية؛ إلا أن الوضع العام الذي تمرّ به البلاد، رمى بظلاله حتى على هؤلاء الأطفال، ففي المدرسة يؤدي

[20]- من شهادات أعضاء منظمة الطلاب الأحرار.

[21]- الشاب ملهم رستم، استشهد أثناء محاولته إيصال بعض المساعدات الطبية إلى مدينة الرستن التابعة لحمص، على يد حاجز تابع لقوات الأسد، راجع حول ذلك: ملهم رستم ..ابن (سلمية) الذي ضحى بروحه من أجل (الرستن)، علي عجوب، 22-3-2014، موقع سراج برس الإلكتروني. وأيضاً من تشييع الشهيد على الرابط التالي: http://www.youtube.com/watch?v=AxF7OsPSEx8

"الموقف" السياسي دوراً مهماً في بناء العلاقات بين التلاميذ، على الأقل في الفترة الأولى من تكوين الصداقات.

والموقف السياسي لدى هؤلاء الأطفال في غاية البساطة، إذ يتبلور عبر بضع مفردات: أنت مع النظام أم مع المعارضة؟ مع الجيش الحر أم مع الجيش السوري؟ .. إلخ[22]. فإحدى التلميذات النازحات مع أسرتها، تعرضت للنبذ في إحدى المدارس لأنها أبدت موقفاً إيجابياً تجاه الجيش الحر، والذي وصفتهم "بأنهم مناح"؛ وعلى الرغم من توصيات أهالي التلاميذ بعدم خوض النقاشات السياسية، وعدم الإفصاح عن أي موقف واضح، فإن الظرف العام الذي تمرّ به البلاد، ترك كبير الأثر بنقاشات الأولاد وحتى ألعابهم، فبات من الدارج أن ترى في المدرسة أولاداً يمثلون دور العساكر ويضعون حاجزاً في إحدى الأماكن ويمثلون دور المخابرات أو قوى الجيش، وفي المقابل لا بدّ أن يكون من ضحايا وفقاً لهذه اللعبة، وهم أولاد يتمّ توقيفهم على هذه الحواجز وتفتيشهم، وحتى إنه لوحظ استخدام الأطفال للمفردات نفسها التي يستخدمها عناصر الجيش على الحواجز.

وبحسب شهادة إحدى المدرّسات في المدينة، فإن عدد التلاميذ النازحين كان أكبر في السنة الماضية (2013–2014)، وفي الصف الذي تعلّم فيه في هذا العام، يوجد فقط بضعة أطفال من النازحين، من مدينة الرستن التابعة لمحافظة حمص، واختاروا الجلوس مع بعضهم في المقعد؛ وبالنسبة للمشاركة في الدرس فهم يشاركون ويتفاعلون كباقي الطلاب، وفي وقت الاستراحة يلعبون ويتقاتلون، ويبدون حالة اندماج مع أقرانهم؛ تقول المدرّسة: "بالنسبة للطلاب الباقين فقد كانوا يتعاطفون معهم، وسألني أكثر من طفل هل أسمح له بالجلوس معهم في المقعد، وأسئلة أخرى عن المساعدة، وأكثر من مرة جمع طلاب الصف مساعدات منهم، وقدموها للمدرسة ليتم توزيعها على الطلاب النازحين"[23].

في مرحلة التعليم الثانوي، تكون الأمور مختلفة نسبياً، ففي هذا العمر (15– 18 عاماً) يكون لدى الشبان والشابات أفكارهم وتصوراتهم الخاصة، وتبرز عبر الاحتكاكات في المدرسة الخلافات في وجهات النظر، وحتى الاختلاف في الثقافات؛ ففي إحدى النقاشات التي دارت في

[22]- المعلومات في هذه الفقرة والفقرات التي تليها، من شهادة المدرسة خلود، 2015.
[23]- المعلومات في هذه الفقرة والفقرات التي تليها، مأخوذة من عدة شهادات موثقة من قبل فريق العمل، 2015.

إحدى المدارس الثانوية في مدينة السلمية، دار نقاش بين التلاميذ، وكان بينهم طلابٌ نازحون من حمص، وكان موضوع النقاش حول "الدين" أو بالأحرى حول الطوائف الدينية، وسرعان ما تطوّر النقاش ليصبح نوعاً من توجيه التهم المتبادلة بين الطرفين، حيث هاجم تلميذٌ نازحٌ "طائفة" التلاميذ الذين من مدينة السلمية، وردوا هؤلاء عليه بالمثل، فتحول النقاش إلى عراك بالأيدي، وسادت بين الشبان علاقات مشحونة بالتوتر والشعور بالنفور.

وعلى الرغم من كل هذه الضغوطات التي يخضع لها جميع التلاميذ، ورغم مرارة ما يمرون به من تجارب مفسدة للحظات الطفولة[24]، فإنهم، ولو في حدودٍ بسيطة، كانوا أقدر من غيرهم من الفئات العمرية على التكيف والتأقلم مع الظروف الجديدة.

وهي الملاحظة نفسها التي تمّ استنتاجها من رصد علاقات التلاميذ السوريين النازحين في لبنان[25]، وعلاقاتهم مع باقي التلاميذ اللبنانيين، حيث لاحظنا أن الأولاد كانوا أكثر قدرة على مواجهة العنصرية التي كانوا يتعرضون لها في بعض الأحيان، وأكثر قدرة على تطوير آلياتهم الدفاعية من أهاليهم، حيث بات من السائد أن ترى في هذه المدارس الكثير من التلاميذ السوريين الذين باتوا يتكلمون بلهجة أهل المنطقة، وحتى بلباسهم باتوا أقرب للسائد في أماكن دراستهم.

إستراتيجية النظام لمنع الاندماج الوطنيّ

نجح نظام الأسد في إحكام سيطرته على مدينة السلمية، ونشر عناصر ميليشياته الموالية في شوارعها، فطرأت متغيرات كثيرة على المدينة وعلى سكانها وعلى علاقاتهم البينية وعلاقاتهم مع الجماعات الوافدة.

فخلافاً لعام 2011، حيث كان الحراك الشعبي الثوري في المدينة ضاغطاً ومؤثراً على الوضع العام في المدينة، سيتراجع هذا الحراك، ومن ثمة تأثيره، في الفترة اللاحقة، وتسيطر بشكل شبه كامل سلطة المخابرات والشبيحة والموالين لنظام الأسد.

---

[24]- تروي لنا إحدى المرشدات الاجتماعيات في المدينة: "لقد جاءنا طفل من الرستن وكان شرساً جداً ويضرب الأطفال بشكل عنيف وعندما سألته عن سبب هذا العنف أجابني أهلي قتلوا جميعهم وأنا أتمنى أن أقتل كل العالم، حاولت مساعدته ومتابعة حالته في المدرسة".

[25]- راجع التحقيق الذي أجراه الباحث الرئيسي في ورقتنا، صبر درويش، بعنوان: "التلامذة السوريون في المدارس الخاصة.. السجال مستمر"، جريدة المدن الإلكترونية، 30-1-2015.

وبعد أن كان الحراك الشعبيُّ الثوريّ في المدينة قد استطاع حماية النازحين في عام 2011، وجنبهم التعرّض لمضايقات القوى التابعة لنظام الأسد، سيؤدي تراجعه إلى ضعف قدرة ما تبقى منه على القيام بهذه المهمة، لحساب زيادة وطأة سلطة المخابرات والشبيحة والموالين لنظام الأسد عليهم وعلى أهل مدينة السلمية.

بعد هذا التحول تعرّض النازحون في مدينة السلمية، للكثير من المضايقات وحتى للانتهاكات من قبل اللجان الشعبية وعناصر الشبيحة، فذُكر الكثير من محاولات التعرض للنازحين المتواجدين في المدارس، من قبل لجان في كثير من الأحيان كانت تدّعي أنها تقوم بعمليات تفتيش لهذه المدارس، بينما يتمّ أثناء ذلك التحرش بالنساء النازحات وبناتهن، كما ذكرت حوادث كثيرة، حيث قام الشبيحة برمي رؤوسٍ لحيوانات نافقة على هذه المدارس، للإساءة للنازحين ودفعهم للخروج من المدينة[26]. كما تعرّض الكثير من الشبان النازحين للاعتقال والاستجواب بتهم شتى كدعم المجموعات المسلحة وغيرها، وطالت هذه الاعتقالات نساء النازحين وأسرهم، حيث ذكرت إحدى المعتقلات من مدينة السلمية المفرج عنهن في وقت سابق، رؤيتها للعديد من النساء النازحات داخل المعتقل، في ظروف غاية في القهر والسوء.

وعلى إثر التفجير[27] الذي طال مقرَّ لجان الدفاع الوطني (الشبيحة) في كانون ثاني 2013، كثرت حوادث التعرض للنازحين، فتمّ ضرب العديد منهم، وبحسب شهادة أحد الشبان النازحين من دير بعلبة في حمص يقول: "أنا أعمل في محل، وبعد تفجير مقر الدفاع الوطني، جاء مجموعة من الشبيحة إلى المحل وبدؤوا بضربي بشكلٍ عنيف، وصرخوا في وجهي: أنت إرهابيٌّ.. أنتم فجرتم المقر..، وتعرضت إلى ضربٍ مبرح، وبعدها أخرجوني من السجن، وطلبوا مني مغادرة المدينة لكنني لم أغادر ولم أستمع لهم"[28].

وهذه الممارسات إذا ما أخذت في مجملها، فإنها قد تركت كبير الأثر على علاقة النازحين بالمجتمع المضيف، وهي علاقاتٌ تشوبها المرارة وعدم الشعور بالأمان، هذا عداك عن شعور الكثير من النازحين أنهم متواجدون في منطقة باتت محسوبةً على الموالين، بينما لا تتمكن قوى المعارضة فيها من حمايتهم، حيث إن قوى المعارضة ذاتها تتعرض للانتهاكات.

---

[26]- من شهادة ماهر إسبر، سبق ذكرها.

[27]- تفجير قامت جبهة النصرة بتبنيه، واستهدفت من خلاله مقر الدفاع الوطني وسط مدينة السلمية، وأودى بحياة العشرات من المدنيين.

[28]- المعلومات في هذه الفقرة والفقرات التي تليها، مأخوذة من عدة شهادات موثقة من قبل فريق العمل، 2015.

تعرّض النازحون في مدينة السلمية، ومنذ بداية عام 2012 إلى الكثير من الأذى، وكانوا في كل الحالات لا حول لهم ولا قوّة، ففضل العديد منهم مغادرة المكان وفي ذاكرتهم تصوّرٌ سلبيٌّ عن المدينة بكلّ تفاصيلها، فالمدينة التي باتت تحت حكم ميليشيات الشبيحة والمرتزقة، بات كل سكانها عرضة لشتى أنواع الانتهاكات، من الخطف والقتل والاعتقالات وغيرها، وإذا كان هذا حال سكان المدينة، فما هو حال ضيوفها!؟.

في ظل هذه الظروف الأمنية السيئة جداً، أدت الناشطات في مدينة السلمية دوراً مهماً على عدة أصعدة كان من بينها دعم النازحين، حيث نجحت نساء من المدينة في تشكيل "تنسيقية نساء مدينة السلمية" وهي منظمة مدنية كانت الغاية منها المساهمة في تنظيم الحراك الشعبي في المدينة وتحديداً القسم النسائي منه؛ وبحسب الشهادات التي حصل عليها فريق البحث، أدت تنسيقية نساء مدينة السلمية دوراً مهماً في دعم النازحين، فتمكّنت النساء من الدخول إلى المدارس التي ضمت أسر النازحين، والتي كانت ترزح تحت وطأة المراقبة الدائمة من قبل عناصر الشبيحة والمخابرات، وعملت النساء على تأمين ما يمكن تأمينه من احتياجات لهذه الأسر، ونجحن في تكوين شبكة من العلاقات مع النساء النازحات والتي انخرط بعضهن بالنشاطات المتوفرة بالمدينة[29].

ورغم كل الجهود التي بذلها الناشطون إلا أن أعداداً كبيرة من النازحين انتقلت إلى الريف القريب، حيث تضعف قبضة النظام ومواليه، كما انتقل قسمٌ آخر باتجاه ريف حماه وريف إدلب المحرر، وآخرون غادروا سورية. وفي أغلب الحالات، وخلال سنوات 2012–2014، عانى النازحون في مدينة السلمية أيما معاناة، وترسّخ في ذاكرتهم معطىً سلبيٌّ عن المدينة.

أثر التطرف وغياب مشروع وطني لدى المعارضة على سكان السلمية

بقدر ما شهدت المدينة اندفاعاً باتجاه إيواء النازحين وتأمين مستلزماتهم في عام 2011، بقدر ما تراجعت هذه الاندفاعة لأسباب مختلفة؛ فمنذ منتصف عام 2012، ستدخل الثورة السورية في طورها العنفي، وسيزداد مع الوقت ثقل ووجود التيارات المعارضة المتطرفة، وسيرمي كلّ هذا بظلاله على سكان المدينة وعلى علاقاتهم مع الوافدين إليهم قسراً.

[29] - من شهادة إحدى مؤسسات تنسيقية مدينة السلمية، 2015.

هكذا تلقت مساعي سلطة الأسد لزرع الشقاق بين أهالي السلمية من جهة، وبينهم وبين النازحين إلى المدينة من جهة أخرى، عوناً كبيراً من التنظيمات المتطرفة. حيث عرفت المدينة موجة من المشاعر السلبيّة بعد سلسلة من التفجيرات التي طالت مقارَّ تابعة لقوات نظام الأسد، وسط المدينة، والتي أوقعت العشرات من الضحايا المدنيين وكان في أغلب الأحيان بتوقيع من جبهة النصرة التي تبنت هذه التفجيرات أو تنظيماتٍ شبيهة بها.

ومن جهة أخرى شكّل اقتراب التشكيلات العسكريّة المتطرفة كجبهة النصرة والفاروق الإسلامية، وتنظيم داعش فيما بعد، من محيط مدينة السلمية، مناخاً من الهلع ساد المدينة، وربما طرح لأول مرة مخاوف الجماعة من أن يكون اختلافها المذهبيّ سبب فنائها.

ولتكتمل قتامة المشهد وجدت جرائم القوى المتطرفة إهمالاً من قبل المعارضة، ليس فقط غياب مواجهة معها إنما أيضاً إهمالاً للقوى المحلية التي حاولت أن تتعامل مع الموضوع العسكريّ، إن لم نقل تشكيكاً بها وتخريباً لجهودها. وإذا أضفنا هذا لما اعتبره الكثير من الناشطين إهمالاً أصليّاً للثورة في مدينتهم، على الصعيد الإعلاميّ، كما السياسيّ، والتعامل معهم كـ"آخرين"، يصبح من السهل فهم انفضاض واسع من مؤيدي الثورة عن المعارضة على الرغم من تمسّكهم بالثورة، وفهم كيف انكفأ أهالي المدينة إلى جماعاتهم الأولى بحثاً عن الحماية. بهذا المعنى فشلت المعارضة في المدينة من تقديم إجاباتٍ حول جملة التطورات التي راحت تشهدها مدينتهم، واقتصرت مواقفها على ردود فعلٍ متواضعة وغير متناسبة مع ما يجري من تآكل تدريجيٍّ لقوى الثورة داخل المدينة. وهو أمرٌ يحتاج إلى دراسة معمّقةٍ في الاصطفافات السياسيّة في المدينة ودورها في الحراك الشعبيّ، وهو ما سنتوسع به في بحث منفصل.

ومن المشاعر المشحونة بالخوف والغضب، وحتى الهلع، تولدت مجموعةٌ كبيرةٌ من ردود الأفعال، والتي كان من ضمنها بروز احتكاكات سلبية بين قسمٍ من سكان المدينة مع الجماعات النازحة إليها، وأدى موالو نظام الأسد دوراً مهماً في إذكاء هذه المشاعر وفي توجيه إصبع الاتهام إلى النازحين في كونهم داعمين للمتطرفين.

ونتيجة ذلك غادر المدينة الكثير من أسر النازحين، وانضمّ إلى المغادرين قسمٌ آخر من معارضة المدينة. وبقيت المدينة محكومةً بالخوف وعناصر الشبيحة، بينما من بقي في المدينة فيرزح

تحت ضغوطات ليس أولها غياب أساسيات الحياة اليومية من ماء وكهرباء وغذاء، وليس آخرها انتهاكات حقوق الإنسان التي تحتاج إلى بحثٍ خاص للإحاطة بها.

خلاصة

شكّلت مدينة السلمية عبر سنوات طويلة من الزمن، وجهةً لجماعاتٍ متعددة، تركت مكان سكنها الطبيعي وهربت خوفاً على حياتها أو هرباً من الفقر والجوع، فساهمت موجات النزوح المتتالية إلى المدينة في تشكيل هويتها، وتحديد مزاج وثقافة أهلها؛ فالانفتاح على الآخر الذي يمكن أن نقع عليه في مدينة السلمية، قد يكون نتاج هذه الخصوصية الديموغرافية وما تركته من آثار على التركيبة الاجتماعية والمزاج العام لقاطني هذه المدينة.

وقد يكون من الصحيح تماماً، أن مدينة السلمية تتقاطع وتتشابه مع أغلب مدن سوريا، على صعيد الثقافة الاجتماعية العامة، إلا أن خصوصية المدينة، تكمن في التوليفة الثقافية السائدة فيها، وهي ثقافةٌ كانت نتاج تمازج جماعات مختلفة حلت عبر الزمن في هذه البقعة من العالم، وأنتجت ما يشبه الإجماع حول ضرورة الانفتاح على الآخر والقبول بتنويعة ثقافية اجتماعيّة سائدة كشرط أساسيٍّ لاستمرار هذه الجماعات في العيش مع بعضها.

ومع انطلاق الثورة السورية اندفع الآلاف من سكان المدينة خلف حلم الخلاص من القهر، والاستغلال، والتهميش، والفقر، ومن أجل وطن سوريٍّ ديمقراطيٍّ لجميع أبنائه. وهي الأهداف التي شاركوها مع ملايين السوريين، وهي المشترك الذي بشر بكسر أسباب التباعد بينهم كونه كان وعياً يتشكل في العمل المباشر.

وفعلاً كُسرت الحواجز بين مدينتي السلمية وحماة، وخرج الناشطون من مدينة السلمية للمشاركة في المظاهرات العارمة في مدينة حماة. ونسّق الناشطون معاً، وصولاً إلى احتضان السلمية للنازحين من حماة، وما عرفه النزوح من صراعٍ بين الثورة ورجالات سلطة الأسد في المدينة لمنعهم من إيذاء النازحين، ولتوفير احتياجاتهم.

إلا أن متطلبات الثورة، بما فيها الاندماج الوطنيّ، كانت كثيرة في مواجهة سلطة دموية تمتلك تراثاً من العمل على تفكيك المجتمع السوريّ، وتمتلك أدواتها الخبيرة في هذا الشأن. كما أن هذا

الانتقال الوطنيّ الذي بشرت به الثورة كان بحاجة لتجسّدٍ سياسيٍّ، لم يوفّق المجلس الوطنيّ المعارض في أن يكونه، ولا الائتلاف الذي لحقه. بل إن ممارسة القوى المهيمنة فيهما كانت تمييزية، تشبه بشكلٍ ملحوظ التفكك وليس الثورة بآمالها. بينما كانت هيئات المعارضة الأخرى ضعيفة التأثير إن لم تكن معدومته.

وبين الفعل التدميري لسلطة الأسد وأجهزتها وأدواتها، والفعل المؤذي للقوى المهيمنة في المعارضة، انتكست حركة المجتمع في مرحلة التلاقي، التي أملت أن تكون خطوة باتجاه الاندماج الوطنيّ، إلى الانكفاء باتجاه الجماعات الما قبل وطنية بحثاً عن الحماية. وفي سياق هذه العملية سحقت سلطة الأسد المجتمع السوريّ، وذهب الكثير من الضحايا مع الآمال، وانكسرت عناصر الثقة بين أغلب مكونات المجتمع السوريّ. وهو ما لم يكن محصلة خاصة بمدينة السلمية، أو خاصة بعلاقة سكان المدينة مع النازحين إليها، بل بات الشعور بعدم الأمان، والشعور بالريبة حيال الآخر، سمةً عامّةً يتقاسمها السوريون بشكل عامٍّ لأسباب تتنوع ولكنها تتمحور حول نهج سلطة الاستبداد، ومعارضة أقل ما يقال بخصوصها إنها لم تكن على سوية ثورة السوريين.

يبدو المشهد العام اليوم قاتماً، إلا أن الجانب المضيء في الأمر يكمن في أن مدينة السلمية وجارتها مدينة حماه، كانتا قد اختبرتا في ظلّ الثورة القائمة أشكالاً من التعايش والتضامن لا سابق لها، وتعلمتا كيف يمكن بناء نواة لوحدة وطنية جامعة، وهو ما أثبت أن لا خصوصيات عابرة للتاريخ، وأنه في سياق توفر الشروط الموضوعية، فإن الشعب السوري، كباقي الشعوب، ينحو باتجاه بناء مجتمع مشدود الأواصر، يجد فيه الأفراد كما الجماعات موقعاً لهم في المشهد الوطني السوري العام.